شرح قصيدة بدر شاكر السيّاب

سفر أيوب

للشيخ:
أبي قتادة عمر بن محمود

شرح قصيدة

(صبر أيوب)

لبدر شاكر السياب

25 يناير 2018 - 9 جمادى الأولى 1439

للشيخ

أبي قتادة الفلسطيني

حفظه الله ورعاه

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله:

المرء بحاجة في لحظات من حياته أن يذهب فيقرأ مشاعر الناس، كيف يحسون في هذه الحياة، في صوابهم وخطأهم، في إخباتهم ومعصيتهم؛ من أجل أن يعلم نفس الإنسان التي أمر الله عز وجل النظر فيها بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

وأنا أعتبر كل إنتاج إنساني صريح وصادق، هو إنتاج إيماني، إما أن يفيدني بكراهية الباطل، وإما أن يفيدني بمحبة الحق. وهكذا ينبغي أن نكون.

والعرب من أهل الإسلام كانوا يقرأون لأهل الجاهلية، ليس فقط لأخذ ما يقوله الشعراء من معانٍ لغوية يستدلون بها، أو يستعينون بها على شرح وتفسير الكتاب وفهم كلام النبي ﷺ؛ لكن كذلك يقرأون أشعار الناس ليعرفوا ما انطوت عليه نفوسهم.

يعني الإمام العظيم الفاروق عمر ﵁ كان يحب شعر زهير بن أبي سلمى، ويقول: "**كان لا يمدح الرجل إلا بما هو فيه**"[1].

فهذا شيء آخر غير قراءة الشعر الجاهلي من أجل الاستدلال؛ وليس هذا الموطن موطن بيان جواز رواية الشعر وقراءته، وأنه يرقق القلوب، وأنه يقرب نظر الإنسان إلى نفسه.

مرات يغلبك الآخر بأن يلتقط اللحظة العابرة من نفسك، وأنت لا تهتم لها ولا تقيم لها الشأن، فيأتي الآخر ويلتقط هذه اللحظة كما يلتقط المصور هذه اللحظة، فإذا أظهرها لك كأنك لم ترها إلا الآن.

والشاعر هو من أعظم من يلتقط الصور.. الصور البيانية التي تعبر عن طريق الكلمات، هي أجمل بكثير من تلك الصور التي تلتقطها الكاميرا بحبس الظل، بإيقافها أمامك في لحظة تأمل؛

---

[1] الشعر والشعراء لابن قتيبة (ص77).

فهذا يعنيني كثيراً، وينبغي على طالب العلم، وينبغي على الإنسان باعتباره إنساناً، هو أن يقف أمام هذه اللحظات الإشراقية العالية الرفيعة في تجلي الإنسان في لحظة تعري الذات، وفي كشف الذات.

أنت بحاجة إلى أن تتعلم هذه اللحظات، وأن تقرأها قراءة صحيحة، حتى تعرف نفسك وتعرف الإنسان.

والقرآن حين يتحدث عن الإنسان، يعتبره شيئاً واحداً، الإنسان هو الإنسان.

مرات مما يقع في داخلك من أخطاء، أنك تظن أنك أنت وحدك الذي تعاني هذه المعاناة، أو أنت وحدك الذي تحس هذه الأحاسيس، أو أنت الذي ارتقيت هذا المرتقى إلى درجة تأمل المعاني؛ وهذا خطأ، إما أن يوقعك في تقبيح نفسك بأنك لست كغيرك "أنت تخطئ وهو لا يخطئ، أنت تجهل وهو يعلم"، وإما أن يوقعك في لحظة "أنك تعلم وهو يجهل"، وكلا هاتين الحالتين خطأ. أنت تعلم وغيرك يعلم، أنت تحس وغيرك يحس، أنت ترتقي وتفهم وغيرك يفهم؛ فلذلك لا تظن –مثلاً– بأنك إذا أخطأت فغيرك لا يخطئ.

حين يتحدث الإنسان عن نفسه، وعن عبادته، وعن إخباته، في لحظة من لحظات النور التي تشرق على قلبه، لا يعني أنه لا يخطئ، فإن له لحظات يبكي من ذنبه، ويخطئ ويستغفر، فعليك أن تفهم أن هذا الذي تحس به من خطئك ومن ذنبك يحس به بقية البشر.

والله عز وجل كشف لنا حياة الأنبياء –وهم أعظم الناس إيماناً، وأقرب الناس إلى ربهم– وأنهم كانوا يخطئون. هذا ذو النون عندما ذهب مغاضباً ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ هذا موسى يقتل خصم قومه، فيستغفر الله عز وجل ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهكذا..

فالقصد: إنك تخطئ وهم يخطئون، فلا تظن أنك تخطئ وهم أولياء في درجة من التسامي عن البشرية وعن الخطأ.

كذلك أنت بحاجة إلى أن تعرف أن هذه الإشراقات التي تقع في قلبك من النظر إلى واقعك، إلى ضعفك وحاجتك وعظمة الله، وغنى الله، إلى ذهابك وفناءك وبقاء الله عز وجل، هذه كذلك يحس بها غيرك؛ مهما كانت درجة معصيته فإنه يحس بهذه المعاني، وهي معانٍ بالنسبة إليك تفيدك في رقيك إن كنت تائباً صالحاً، ومعان بالنسبة إليه هي من إقامة الحجة عليه..

عندما يشرق المفهوم الإيماني في نفس الملحد، بأن يرى عظمة الله في شأن، فيبصر فيتكلم هذه الكلمات الموحية بإيمانه، ثم يرتد كافراً، ماذا يعني هذا؟ يعني أن الله قد أقام عليه الحجة بمثل هذه الإشراقات.

الأدلة الإيمانية ليس فقط هي أدلة عقلية، الأدلة الإيمانية –بالنسبة للبشرية– هي أدلة إيمانية قلبية أكثر منها عقلية، تناقش مناقشة العقلاء والحكماء والرياضيين؛ يشرق الله عز وجل من المعاني الإيمانية على نفس الكافر الملحد فيبصرها؛ فحينئذ إما أن تأخذه أخذاً إلى جناب الله عز وجل، وإلى الولاية والصلاح والعبادة والتقوى، وإما أن يرفضها فينتكس ويعود إلى ما هو عليه.

هذه اللحظات الإشراقية هي التي تعنينا في كلام الشعراء. الشعراء لا يعيشون الشجاعة في كل وقت، ولا يعيشون الحب في كل وقت، ولا يعيشون ذوق الفهم للمعاني في كل وقت، لكنها تشرق عليهم فيكتبونها، يصطادونها –قيد علومك بالقيود الثابتة النافعة– فهذا مما يستفاد من هؤلاء الذين يتكلمون.

من هنا تأتي كلمات العلماء عظيمة في فهمها، عظيمة في جمالها، عظيمة في أهميتها، ونحن في حاجة إليها –لهذا المعنى الذي نقرأه– كذلك نحن بحاجة أن نسجل هذه المعاني.

العلماء عندما تحدثوا عن قراءة العامي للقرآن، ليس فقط التدبر للمعاني، يعني: الناس يظنون حين يتكلمون عن تدبر القرآن بأن ينتج لديهم فهماً جديداً.. تنزلاً علمياً رائعاً جديداً لم يعرفه السابقون، هذا غير صحيح.

القراءة والوقوف أمام استماع أو قراءة القرآن، هذا المعنى الإيماني الذي يطغى عليك من محبة هذا الكلام، ومن التفاعل معه، ومن اقشعرار البدن من سماعه، هذا مطلوب إيماني، وبها ترتقي عند الله ((**اقرأ وارتق**))، هذه مرتبة النظر إلى القرآن.

وبالتالي: أنت مرات بحاجة إلى كلمات تغزو قلبك، فتقرأها على هذا المعنى الفريد الذي يأتيه هذا الكاتب، ولا يهمك بقية حياته. يعني: أنت لا يهمك أن تقرأ الإنسان في كل زمانه كيف هو، يكفيك أنه قال هذه الكلمة وقد أشرقت في ذهنه على معنى من معاني الحكمة، فأنت تأخذها، يكفيك هذه اللحظة.

لا تسألني: من هذا الكاتب؟ وهل أقبل منه هذه الكلمة أو لا أقبلها؟ خذها، ومن هنا جاءت حكمة من قال: "**الحكمة ضالة المؤمن**"، خذها انتفع بها.. هذه الحكمة أشرقت على قلبه فخذها.

من هنا -يعني- يعجبني أن أقرأ لإخواني ما يقوله بدر شاكر السياب في "**سفر أيوب**".

تعرفون أن -هنا أنبه على نقطة- أن أيوب عليه السلام صار نموذجاً للصبر، وهو موجود في التوراة وموجود في الإنجيل، وموجود كذلك في القرآن؛ فإذا الناس تحدثوا عن الصبر العظيم الكبير الذي يسلي آلامهم ويسلي صبرهم في التعامل مع آلامهم، يقولون: صبر أيوب.

ولاشك أن شعراء التفعيلة وشعراء المحدثين في هذه الأيام، قد غلبت عليهم الصور الغربية؛ يعني: عندما يتحدث السياب بدر شاكر السياب، وهو -للذكر- كان شيوعياً، فكفر بهم وألف فيهم كتاباً بعنوان (كنتُ شيوعيًا)، وهو في الأصل شيعي فيما أظن، ولم يكن معروفاً بعبادته ولا بتقواه، ولكنه في لحظة تعب ورهق وضعف ومرض نظر إلى الله فقال كلمات، هذه الكلمات جميلة، سواء أعددنا هذه الكلمات من الشعر أم من النثر، فيكفي أن نأخذ معانيها؛ وعلمت أن البعض ممن هو من أكفر الناس بالشعر الحداثي المعاصر، لكنه كان يتأمل هذه الكلمات ويقرأها على جهة العظة والاعتبار والتأمل.

أقول: للأسف، إن كثيراً من الشعراء المعاصرين قد أخذوا الأساطير اليونانية فأدخلوها في الشعر.. هذا معروف.. تموز وغيرها.

فلا يعني هذا أن بدر شاكر السياب عندما أتى بهذا السفر "**سفر أيوب**" إنما جعله من التراث الإسلامي، لا، هو "**سفر أيوب**" يعني، وهو سفر من أسفار التوراة، غير الخمسة التي هي موجودة في التوراة.

يقول فيها –ما يهمني هو أن أقرأ سريعاً بعض ما قاله هذا الشاعر– يقول فيها:

لك الحمد مهما استطال البلاء،

ولك الحمد، مهما اشتد الألم

لك الحمد، إن الرزايا عطاء

وإن المصيبات بعض الكرم

أنا قلت سابقاً وأقول: أن أحس بأن هذه الكلمات لا تكلف فيها، ولم تصنع صناعة الشعر.

الشعر صناعة، فتراهم يقولون: صناعة الشعر، فالشعر ليس كما يظن البعض بأنه –يعني– مجرد كلمات تخرج سريعاً، لا، ربما الكلمات الأولى تخرج سريعاً، لكنها بعد ذلك تحتاج إلى بناء.

ولذلك بعض الشعراء كزهير يسمي العلماء شعره بالحوليات، لأنه كان ينقح الشعر حولاً كاملاً[2]؛ لكن من مهمات الشاعر أن يخفي عرق جهده وهو يبذل كلماته، من أجل أن يبين أنها خرجت من غير جهد، لأن الجهد يعني أن المعاني قد استعصت عليه، وهو يريد أن يخفي جهده، كالرجل عندما يبرز عضلاته يبتسم، مع أنه يضغط أشد الضغط على نفسه.

[2] يقول ابن جني: "ألا ترى إلى ما يروى عن زُهير: مِن أنه عمل سبع قصائد في سبع سنين، فكانت تسمَّى حوليات زهير؛ لأنه كان يحوك القصيدة في سنة". (الخصائص 324/1).

إخفاء العرق عند الكلمات الجميلة هي مهمة الشاعر ومهمة المتكلم، بأنه لا يبذل جهداً كبيراً في استخراج الدرر واستخراج الكنوز، مع أنها صعبة وشاقة.

هذه الكلمات أشعر بسهولتها وبساطتها؛ سواء كانت خرجت من نفس السياب على معنى السيولة، كخروج الماء من الإناء خروجاً سهلاً بلا مشقة، أو أنه تكلف بناءها ثم أخفى هذا التكلف؛ فكلاهما يدل على مقام جميل في التقاط المعاني في نفس هذا الشاعر بدر شاكر السياب.

هذه القصيدة كتبها بدر شاكر السياب في لندن، وقد أصيب بمرض السل الرئوي، فكان داخل مستشفى وحيداً، يزوره بعض العائدين زيارات متقطعة تكلم عنها.

أحسست بصدق هذه الكلمات، سواء قالها على المعنى الإيماني الصحيح، أو قالها على المعنى الإنساني العام، ولكنها كلمات -بلا شك- عجيبة جداً، والعُبَّاد بحاجة إليها.

انظر إليه وهو يحمد الله عز وجل عند البلاء، وهذا معنى من معاني الحمد لا يشاركه في هذا المعنى أي لفظ آخر، حتى الشكر، الشكر لا يكون عند البلاء، الشكر يكون عند النعمة. الحمد يكون عند البلاء وعند النعمة، لكن الشكر لا يكون إلا عند النعمة؛ بمعنى: أن الحمد لا يمكن أن يستخدم غير هذا اللفظ عند البلاء، لا يمكن. الشكر لا يجوز أن قوله عند البلاء، تقوله عند الرخاء، تقوله عند النعمة؛ والحمد تقوله عند البلاء وعند النعمة.

فالشكر لا يقال عند البلاء، فهنا قال: "**لك الحمد**"

انظر إليه!! هو يحمد الله عز وجل في هذه اللحظة المؤلمة جداً.. يصفها وصفاً عجيباً جداً في داخل هذه الكلمات الرائعة له.

"**لك الحمد**.." وهنا "**لك**" هذا خطاب لله عز وجل، هو يخاطب الله سبحانه وتعالى، لأنه هو رب الأقدار لا غير.

عند الضعف يظهر ضعف الإنسان، وعند الضعف تظهر حقيقة الإنسان، ولذلك ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾. فالناس عند الضر لا يعرفون إلا الله، فالطبيب لا ينفع، الأدوية لا تنفع، المال لا ينفع، لا يبقى إلا الله.

ومرة كنت في مناظرة -وأنا في الجامعة- مع مدرس الفلسفة، وهو شيوعي اسمه أحمد عوني ماضي، فهو احتج بخالد مُحَمَّد خالد في كتاب (من هنا نبدأ)، فقلت له: أسلم الرجل -تغير من الإلحاد إلى الإيمان، مع ما عليه من كلمات-، فقال: هذه عادة الناس، يخافون عندما يكبرون. يعني هو يلاحظ.. لا يريد أن يقع في هذا الموقع، في أنه إذا كبر يخاف من الموت للأسف، ولكنهم في الحقيقة يخافون.

فانظر إليه عند البلاء ماذا يقول ويحمد الله:

لك الحمد مهما استطال البلاء

و"**استطال**" يعني طال، طال طولاً زائداً، وكل طول يحتاج إلى استطالة. انظر إلى هذا اللفظ!! هو طول لا يقف عند حد، بل هو طول يستطيل في كل إطالة له؛ فله الحمد مهما دام وطال.

ومهما استبد الألم

انظر!! هو أراد شيئين هنا: أراد الحمد على البلاء بكميته، والحمد على البلاء بزمانه.. بكميته وطوله وزمانه؛ وهذا -يعني- هذا من الجمال العجيب، ومن اللفظ الموفق في قوله.

لك الحمد مهما استطال البلاء

هذا الابتداء وهذا الحمد عند الحديث لا يصبر عليه الداعي، ومن جرب البلاء في سجن، في مرض، في فقر.. هو يقوله في الابتداء، ولكنه يبقى يرجو اليد الأخرى الحانية، اليد الأخرى الشافية، اليد الأخرى المعطية الكريمة. ولذلك هو في آخر الأمر -يعني- يقول: أنت تعطي البلاء

ولكنك كذلك تعطي الشفاء، كما سيأتي، فانتبهوا إليها؛ لكنه عند الابتداء هكذا يبرز المرء، حامداً لربه، مستعداً لتلقي أقداره عليه.

يقول:

لك الحمد مهما طال البلاء

ومهما استبد الألم

"**استطال**" بالطول الزمني، و"**استبد**" قهر وقوي وشط.

لك الحمد، إن الرزايا عطاء

والله هذه لو قالها عابد لمدح أشد المدح

قال:

لك الحمد، إن الرزايا عطاء

وإن المصيبات بعض الكرم

كلماتهم لا تخفى في هذا الباب، لأنها بروز أمام الله، وحين يبرز المرء أمام الله يتعرى، حتى لا تتخفى كلماتهم؛ فهو يحمد الله عز وجل، لأنه يرى هذا البلاء هو عطاء من الله، وهو كرم.

البعض الآن يقول: كيف يكون البلاء عطاء؟!! البلاء به يتم الصبر الذي به يترقى العبد، البلاء هو فرصة من أجل إثباتك عبوديتك لله، وأنك كما حمدته في العطاء تحمده في البلاء، وفرصة لك من أجل أن تثبت أنك تحبه لما يقدر فيك من المقادير، وهو فرصة لك من أجل أن تثبت أنك تدخل على عبوديته من أبواب متعددة في هذا السبيل.

"**لك الحمد، إن الرزايا**" الرزايا جمع رزية، وهي البلاء العظيم.

وإن المصيبات بعض الكرم

وهي -ولا شك- كرم لما تؤول إليه من العطاء.

هنا هذا الموقف الابتدائي الذي يأتيه بدر شاكر السياب يبدأ يخف، ويبدأ عامل الرجاء يثب إليه ويقفز إلى ذهنه وإلى نفسه؛ هذا الموقف الأول هو موقف الصابر، الموقف الذي يتلقى القدر، الموقف الإيماني الذي يتعامل بحكمة الإيمان -لا أقول: بمنطق الإيمان بل بحكمة الإيمان- في أنه عليه أن يصبر، وعليه أن يحمد، وعليه أن يثبت عليه. لكنه حينئذ يبدأ الرجاء، هنا يبدأ الرجاء بالنظر إلى اليد الأخرى، هنا نظرة إلى عطفه ورحمته وكرمه وحنانه.

فانظر إليه وهو يقول كأنه يسلي نفسه، لكنه مع هذه التسلية يطلب الرجاء:

ألم تعطني أنت هذا الظلام؟

وأعطيتني أنت هذا السحر

هو يريد أن يذكر نفسه قبل كل أحد -هذا حديث مع النفس-: إن السنة مع هذا الإله جرت على معنيين: على معنى الليل وعلى معنى الفجر، على معنى البلاء وعلى معنى العطاء، على معنى الامتحان وعلى معنى الفرج؛ فهو يذكر -انتبه: هذه تسلية للنفس..

كان هناك ظلام -هذا الذي أعيشه- وأنني أرجو السحر -أن يكون هناك الفجر الذي يزيل هذه الظلمة التي تغشاني وتحل بي-.

فهل تشكر الأرض قطر المطر؟

وتغضب إن لم يجدها الغمام

الأرض تعيش على حالتين -كما يعيش الليل والنهار- تعيش: ينزل إليها المطر فهي تشكر، وهذا الشكر يظهر بالنبت والنبات، والشكر الذي في أنها تتكلم لغة لا نفهمها ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ

إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ﴾، لكن إذا لم يأتها المطر فهل عليها أن تغضب؟ لا، عليها أن تصبر؛ فهي بين حالي الصبر والشكر.

وقد عبر عن هذا وكأنه يحادث نفسه، كأنه يؤنبها، كأن هناك نازع وهذا يحسه كل مبتلى.. أنا أعرف هذه لأنه يتحدث عن كل مبتلى، والمبتلى يشعر بصدق كلماته.. عندما ينظر يقول: أنت عشت عشرين سنة وأنت منعم، وأنت تشكر الله على هذه النعم، الآن لما جاء الابتلاء.. هذا حديث مع النفس؛ ومن هنا جاءت هذه العبارات بصيغة السؤال، فقال:

فهل تشكر الأرض قطر المطر؟

وتغضب إن لم يجدها الغمام

إن لم يعطها السحاب الماء، هل تشكو؟

انظر إليه الآن وهو يبين حاله نفسه.. الآن يبدأ.. المراتب.. هذه المراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة الصامد.

المرتبة الثانية: الحوار.

المرتبة الثالثة في قضية الشكوى وهي دالة على صدق متكلمها:

شهور طوال وهذي الجراح

تمزق جنبي مثل المدى

هو يشكو الألم، وكيف أن شدة الألم كأنها سكاكين تضرب بجنبه.

ولا يهدأ الداء عند الصباح

كأن السياب هنا تذكر قصيدة المتنبي في شكواه عن الحمى، التي تزوره في الليل وتنفرج عند الصباح؛ وهو يذكر هنا يقول: أن مصيبتي لا، لا تنفرج عند الصباح كمصيبة المتنبي بالحمى

زائِرَتـــــي كَـــــأَنَّ بِهـــــا حَيـــــاءً فَلَيـــسَ تَـــزورُ إِلّا فـــي الظَـــلامِ

تأتيه في الظلام فقط.. تبدأ الحمى في الظلام.. في النهار لما يأتي النهار تذهب، ولكن المسكين السياب حماه على معنى آخر.

قال:

ولا يهدأ الداء عند الصباح

ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى

هل هذه الكلمة فيها تمني أن ينزع الموت نفس السياب من هذه الآلام؟

ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى

هذا كله حوار نفس إنسانية يحسها كل مبتلى.

أكرر هذه الكلمة لأنها هي مفتاح فهم هذه القصيدة. قال:

ولكن أيوب إن صاح صاح

إذا تكلم ماذا يقول؟

لك الحمد، إن الرزايا ندى

وإن الجراح هدايا الحبيب

أضم إلى الصدر باقاتها

هداياك في خافقي لا تغيب

وهنا هو يريد أن يجعل نفسه هو مكان أيوب في صبره، لأنه يعيش حالة البلاء كما عاش أيوب، ويقول: إنه خلال هذه الآلام التي تصبغ بنفسها عليه في كل وقت، في الليل والنهار، في الصباح والمساء؛ فماذا يفعل هو بها؟ ماذا يفعل؟ خلالها يصيح هذا الكلام المكلوم المتألم، يقول:

لك الحمد، إن الرزايا ندى

وإن الجراح هدايا الحبيب

هذه المصائب، هذه هدايا من الله عز وجل؛ والناس يقولون هذا، العوام يقولون: الله "افتكدك" وهذا يقولها العوام، يقولون حين يقع البلاء: الله "افتكد" أبو فلان، بمعنى: أنه أعطاه. الناس يفهمون من معاني القدر ما لا يفهمها بعض من زعم التعبد والإخبات.

القصد: إنه يريد أن يقول: بأن نظرة هذا العابد ونظرة هذا المبتلى إلى العطاء نظرة مختلفة، أنها نظرة إلى يد رحيمة.

لا تتغير حقيقة الفعل من جهة حقيقته، وإنما التغير هو في الظاهر؛ فهذا ألم وهذا ندى، ولكنها كلها مخفية بيد حانية، يد معطية. وكما أنه أعطى البلاء، أعطى العطاء، وكلاهما على معنى الحب. وهكذا يجب على العابد وعلى الناظر وعلى المبتلى أن ينظر إليها، لا ينظر إلى ظاهرها، ولكن ينظر إلى باطنها، فإن الله عز وجل لا يكون منه إلا الرحمة.

لك الحمد، إن الرزايا ندى

تنزل على قلبه، وكأنه يذكر العابد بقول ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ كأنه يذكر المرء بهذا المعنى.

وإن الجراح هدايا الحبيب

هذه الجراح كيف تأتيها؟ يأخذها كأنها زنابق وكأنها ورود؛ يقول:

أضم إلى الصدر باقاتها

هذه الهدايا.. وهي بنفس الوقت جراح

هداياك في خافقي لا تغيب

هذه في حنايا.. لا يمكن أن أنسى نعمك علي وعطاياك

هداياك مقبولة. هاتها!

هذه اللحظة هي لحظة تحدٍ للذات، وليس تحدياً للإله؛ هي تحدٍ للذات وقهر للنفس.

معاذ بن جبل رضي الله عنه في لحظة الموت نطق بمثل هذه الكلمات؛ كان يقول: " **اخنُق خَنِقَك، فوعزتك إني أحبك**"[3] يقول: زد، وعزتك لا أقول هذا إلا أني أحبك. وفي الحقيقة: هذا موقف صعب.. أجزم لكم أنه صعب، لكن يعيشه المرء في لحظة من اللحظات.

أنا هذا لا يهمني أن يعيشه المرء في كل لحظة؛ والسياب صادق؛ كما رأيتم أن نفسه مترددة بين الصمود والعطاء، وبين الخوف والرجاء، وبين ارتقاب الفرج.. وسترون هذا التردد في الحديث في هذه النفس الإنسانية الشاعرة المراقبة، سترونها مترددة، وهكذا. كل من ابتلي يكون هكذا: اصبر اصبر.. طيب، أنت أوتيت النعم سابقًا.. الآن جاء دور الصبر؛ وهكذا يبقى في مثل هذه الحالات حتى يأتيه الفرج، أو يأتيه الموت.

قال:

أشد جراحي وأهتف

بالعائدين:

[3] المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (264/4).

يعني: الزوار له، بغض النظر عن صحتها لغة. هو ماذا يقول؟ لما يأتيني الزوار ماذا أفعل؟ "**أشد جراحي**" أكتم هذا الألم، فلا يظهر على وجهي إلا البسمة، فكاني أعيش حالة التمتع. قال: "**أشد جراحي وأهتف**" يكتم جراحه ويقول لزواره:

ألا فانظروا واحسدوني،

فهذي هدايا حبيبي

يا إلهي! عندما يأتي إليه الزوار يخفي كل آلامه التي تحدث عنها، ولا يظهر إلا البسمة، وكأنه يعيش لحظة فرح مع هذه الآلام. يقول: انظروا، هذه هدايا حبيبي؛ عندما يبرز لهم الآلام -جراح الجنب والآلام التي به- يقول: هذه هدايا حبيبي؛ هو لا يريد أن يتحدث عن مولاه لغيره شاكياً، يريد أن يتحدث عن مولاه أمام غيره شاكراً وليس شاكياً. فانظروا إليه يقول:

ألا فانظروا واحسدوني

لعلي قلت هذه القصة عدة مرات: جلست مع أخوين قد قطعت أرجلهما في الجهاد في أفغانستان، وهما يتبارزان من رجله الصناعية الأجود!! أحدهما صنعت رجله في أفغانستان، والثاني صنعت في بريطانيا؛ فأنا جعلت أنظر إليهما وكأني أحسدهما.. يتنازعان على شيء ليس عندي!!!

وحقيقة: كأن المرء مرات يحسد على البلاء، لأنهم يرونه في البلاء قد قام مقاماً لا يعرفونه! يرونه صابراً، يرونه مَزُوراً، يرونه مرحوماً، فيحسدونه.. الناس مرات يحسدون على البلاء كما يحسدون على المكارم والعطاء!!

فهذي هدايا حبيبي

هذه كلمة لم تقل من بداية القصيدة "**فهذي هدايا حبيبي**".

انظر إلى هذه الكلمات بعدها ما أجودها وما أروعها! وفي الحقيقة: هي محيرة لدرجة البكاء، وتفعل في الإنسان فعلها إلى درجة السكوت، لأن الشيء إذا قوي في عين الناظر صعب وصفه. يقول:

وإن مست النار حر الجبين

توهمتها قبلة منك مجبولة من لهيب

ماذا نقول؟!! يقول: الآن إذا جاء الألم الشديد على جبيني بسبب هذا المرض -إذا أصابتني الحمى الشديدة- أنا ماذا أفهمها؟ أفهمها أنها قبلة من حبيبي، ولكنها قبلة مليئة بالشوق، فهي فيها لهيب الشوق. هذه الحرارة التي أحسها هي قبلة الحبيب المجبولة باللهيب.

يعني ماذا نقول؟!! أنا لم أقرأ هذه لا أدري ولا أفكر كيف أفسرها، لا يمكن. الكلمات عندما ترتقي في درجة وصفها وشاعريتها، تصبح محاولة تفسيرها تقليل من درجة قوتها، وتقليل من درجة عظمتها، وتقليل من درجة أحاسيس صاحبها ومشاعر صاحبها؛ لأنه أرادها أن تكون هكذا هي. الكلمات إذا نقلت تغيرت كثير من معانيها، تغيرت كثير من قيمتها.. ربما ترتفع عندما يفسرها البعض، يفسر الكلمات بأجمل مما قالها صاحبها فترتفع قيمتها؛ ولكننا أمام كلمات إذا أخرجت من مكانها -بلا شك- أنه ستنقص قيمتها.

أعود للقراءة. يقول:

وإن مست النار حر الجبين

الآلام.. الوجع..

توهمتها قبلة منك مجبولة من لهيب

يتابع السياب يقول: "**جميل هو**.." الآن هو يتحدث عن حاله في الليل.

القصيدة -كما ترون- لا تتحدث عن نسق زمني، بمعنى: لا يجوز لك أن تأخذ قصيدة الشاعر معبرة عن نفس زماني؛ قد يجعل ما حدث معه متأخراً في وسط الكلام، وقد يجعل ما حدث ابتداء في نهاية الكلام أو في وسطه؛ و لمحمود شاكر في "نمط صعب ونمط مخيف" كلام في هذا.. أرجو من إخواني أن يعودوا إليه..

هو الآن يتحدث عن ماذا؟ عن حالة الليل، ماذا يقع معه في الليل.

نحن رأينا كيف فسر حر الجبين؛ طيب، كيف يفسر هذه اللحظات التي يسمو بها مع ألمه في الليل؟ هو يسهر الليل شاكياً متألماً، لكن كيف يفسر هذا الألم وهذا السهر المتعب الشاق "البلاء"؟؟ يقول:

جميل هو السهد أرعى سماك

علمني أن أنظر إلى السماء.. كنت أنام مبكراً

بعينيّ حتى تغيب النجوم

ويلمس شباك داري سناك

يبقى ساهراً في الليل.. علمه أن يعد النجوم، علمه هذا السهر أن يسامر، علمه هذا السهر -الذي كان سببه الألم- أن يتعامل مع كائن جديد. تأتي هذه النجوم ثم تذهب بسبب الفجر، وحينئذ تشرق الشمس فتضرب باب بيتي، الذي هو في المستشفى ولا شك.

قال:

جميل هو السهد أرعى سماك

بعينيّ حتى تغيب النجوم

ويلمس شباك داري سناك

جميل هو الليل: أصداء بوم

لا يوجد بوم في لندن ببريطانيا؛ ولا شك أنه أراد شيئاً آخر، وهو تلك الأصوات التي تنبعث في الليل مخيفة ومرعبة، وغير سليمة.

يقول:

جميل هو الليل: أصداء بوم

وأبواق سيارات من بعيد

وآهات مرضى، وأم تعيد

أساطير آبائها للوليد

يعني: انظر هنا.. يوجد تأثر كذلك هنا.. الأساطير.. سفر أيوب.. هذه نتركها وليس هو مجال النظر فيها.

قال:

وغابات ليل السهاد، الغيوم

تحجب وجه السماء

لندن مليئة بالغيوم.. الآن ذهب في الحقيقة، ولكن يتحدث عن شيء -يعني- رأى أن الليل فيه غيوم تحجب الليل.. مدينة الضباب.

قال:

وغابات ليل السهاد، الغيوم

تحجب وجه السماء

وتجلوه تحت القمر

"**تجلوه**" أي: تكون هي المجلية له.

الآن هو بماذا يختم؟؟ هنا تظهر إنسانيته المفعمة بالفقر، والمفعمة بالضعف، والمفعمة بالرجاء. بعد هذه الكلمات التي تذهب بك هنا وهنا، من رجاء، ومن تألم، ومن فهم جديد ووو إلخ؛ لكنه في النهاية –كعادة كل مبتلى– يكون ابتداءه بالصبر، ويكون انتهاءه بالأمل.

المبتلى –أيها الإخوة الأحبة– يعيش بين هذين الحدين: يبدأ صابراً وينتهي مؤملاً؛ ولولا الصبر والأمل لما قدر على أن تمر عليه لحظات البلاء على المعنى الصحيح.

فانظر إلى نهاية كلماته التي تعبر.. حقيقة الشعر وأجمل ما فيه أنه معبر عن صدق مشاعر صاحبه.. هذه الكلمات إن لم تعبر عن صدق صاحبها، فليس لها قيمة.

لما تحدث الشاعر عمر بهاء الدين الأميري عن أبنائه لما فقد أبناءه، تحدث العقاد عن هذا الشعر فقال كلمة، قال: «لو كان للأدب العالمي ديوان من جزء واحد، لكانت هذه القصيدة في طليعته».

الأستاذ مُحَمَّد قطب لما تكلم عن الفن الإسلامي، أخذ كلاماً لبهاء الدين الأميري في لحظة صراعه الضعيف، عندما دعي إلى المعصية في داخل الفندق، وقال: هذا شعر إنساني صادق.

الشعر قيمته في صدق صاحبه!

أنا غيرت رأيي في شكري مصطفى – الذي يسمون جماعته "جماعة التكفير والهجرة"، وهو سمى جماعته جماعة المسلمين– فرأيته صادقاً لما تحدث عن:

أبتَـــاهُ لاحَ الشـــــطُّ للـــــرُّبَّانِ   ودنا الأمـــانُ لقلبِـــهِ الحـــــيران

بدأت أقرأ فيها، حتى وصلت إلى قوله –فعلمت حينئذ.. انفعلت معه وقلت هذا رجل صادق– لما قال في قصيدته عن أمه:

ولقـــد عجبـــتُ بأي قلـــبٍ تتقـــي ذكـــري
وكيـــــــــــف لمثْلهـــــــــــاِ نســـــــــــياني

المرء حين البلاء الشديد لا يذكر إلا أمه –إن كانت حية–، وهذه سمعتها من عدة أناس؛ أحدهم حدثني –رحمة الله عليه، مات شهيداً، أسأل الله أت يتقبله، وهو الشيخ رفاعي طه– قال: مرة كنت أصلح الكهرباء، فضربتني فأيقنت بالموت، لما تأتي على روحي ونفسي إلا أمي؛ فالمرء حين البلاء لا يأتي على ذهنه الأولاد ولا الزوجة، تأتي أمه. فلذلك شكري مصطفى لحظة التنفيذ –عندما جاء السجان ليقتله– ذكر أمه.. لما جاء إلى ذكر أبيه أعرض عنه وتكلم كلاماً عقلانياً، لكنه لما جاء إلى أمه قال:

ولقـــد عجبـــتُ بأي قلـــبٍ تتقـــي ذكـــري
وكيـــــــــــف لمثْلهـــــــــــاِ نســـــــــــياني

الشعر قيمته في صدق صاحبه.. انظر إلى نهايته وقد أظهر الأمل

وإن صاح أيوب كان النداء:

لك الحمد يا رامياً بالقدر

ويا كاتباً، بعد ذاك، الشفاء

فقط.. هذا الختام.. "**لك الحمد يا رامياً بالقدر**" الله عز وجل يرمي عباده بمقاديره! يهربون.. أين يهرب الناس؟!! وكما قيل: **نفر من قدر الله إلى قدر الله**.

أين الفرار؟!! نحن ضعاف.. والقدر أمامنا، والقدر خلفنا، والقدر عن يميننا، وعن يسارنا، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾.

ثم بعد ذلك يختمها بالرجاء

ويا كاتباً، بعد ذاك، الشفاء

لقد صبر، ولكنه يريد أن يرى بعد ذلك الشفاء.. نسأل الله أن يرحمنا برحمته.

ما يهمنا هو لحظات المعاني التي تشرق على نفس الإنسان بالنظر إلى الأقدار على وجه صحيح؛ ولا شك مع أنه استخدم السياب الألفاظ غير الإسلامية، لكن كل هذا المعنى الذي هو فيه، هو نتاج البيئة الإسلامية في النظر إلى القدر.

الغربي لا ينظر إلى هذه المعاني، الغربي لا يعيش هذه المعاني قط، لا في البلاء ولا في الامتحان، له معان أخرى يعيشها.

وهذا النظر إلى معنى القدر عند المسلم، هو الذي يجعله يصبر ويفهم فهماً صحيحاً.

يذكرني في الختام قبل أن أنتهي، بل الكلمة الأخيرة: جالست قسيساً نصرانياً، فأراد أن يبالغ في تجربته الإيمانية بما يسمى "الإيمان بالمسيح"، وأنه المنقذ وأنه الشافي! فقال: إنه يئس مرة من حياته فحاول الانتحار، ففي المستشفى نظر إلى الإنجيل، فأخذه وأنقذه، فاعتبر أن تجربته تجربة عالية بإنقاذ المسيح له. فقلت -بمعنى الكلام الذي جرى-: هون عليك، أمي في كل يوم تعيش آلامك، ومع ذلك لم تفكر في الانتحار، أمي تعيش أكثر من آلامك التي أنت هربت منها إلى الانتحار، ومع ذلك لم تفكر في الانتحار، والسبب في ذلك هو: إيمانها بالإسلام، إيمانها بالقضاء والقدر؛ فبلا شك أن المسلم -يعني- في هذا الباب فريد من نوعه، ولولا الإيمان بالقضاء والقدر والإيمان باليوم الآخر لرأيت الناس في بلادنا يموتون قهراً، يموتون انتحاراً، يموتون هروباً، يموتون أمراضاً كثيرة نفسية يعانون منها؛ لكن الإيمان القدر والإيمان باليوم الآخر يرطب هذه المعاني. فلولا أنه عاش في بيئة إسلامية تجعل هذه المعاني تخرج من نفسه بهذه الكلمات الجميلة، لما كان.

اللهم ارحمنا برحمتك.. جزاكم الله خيراً، والحمد لله رب العالمين.